

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطريق الوحيد والاستراتيجية الرئيسة
في النظام التربوي الديني، (المحاضرة ٢٤)

علي رضا بناهيان



PANAHIAN.NET

الزمان: شهر رمضان المبارك عام ١٤٣٤ هـ
المكان: مسجد الإمام الصادق (ع) في مدينة طهران
الموضوع: الطريق الوحيد والاستراتيجية الرئيسة
في النظام التربوي الديني، (المحاضرة ٢٤)

إليك ملخص الجلسة الرابعة والعشرين من سلسلة محاضرات سماحة الشيخ بناهيان في موضوع «الطريق الوحيد والاستراتيجية الرئيسة في النظام التربوي الديني» حيث ألقاها في ليالي شهر رمضان المبارك عام ١٤٣٤ هـ. في مسجد الإمام الصادق (ع) في مدينة طهران.

من المواضيع المهمة جدًا في طريق جهاد النفس، موضوع المحبة

من المواضيع المهمة جدًا التي يلتفت إليها في مسار جهاد النفس، هو موضوع المحبة. المحبة تارة تنعقد بالدنيا وتارة تنعقد بالله وبأهل البيت (ع). فلنبيّن بادئ ذي بدء العلاقة بين جهاد النفس وأصل الحبّ، ثم ننتقل إلى موضوع حبّ أهل البيت (ع) والذي لم ينفك عن موضوع تقبّل الولاية وإعطاء زمام الإدارة إلى الولي.

إن جهاد النفس بمعنى جهاد النفس ضدّ النفس / السلاح الوحيد لمجاهدة الرغبات التي لا قيمة لها، هو الرغبات الأخرى في قلب الإنسان

جهاد النفس، بمعنى محاربة بعض النزعات السطحية في داخل الإنسان. ولا بدّ أن تكون هذه الحرب على يد فئة أخرى من النزعات التي هي في قلب الإنسان أيضا. إذن جهاد النفس بمعنى جهاد النفس ضدّ النفس، ويعني محاربة بعض الرغبات عن طريق رغبات أخرى. إن هذه المعركة قائمة في داخل الإنسان، وأمّا الإدارة التي تدير هذه الحرب من خارج وجود الإنسان ليس لها سوى أن تعطي برنامجا لإدارة هذه المعركة. السلاح الوحيد المتاح استخدامه في عملية جهاد النفس ومحاربة بعض الرغائب، هو رغائب من نمط آخر. فإننا لو كنّا ننتوي على رغائب سطحية وحسب، لا نقدر على هذا الجهاد. في الواقع أثناء جهاد النفس، يتبارزان رغبتان مع بعض ثم تنتهي عملية الجهاد بتفضيل إحدى الرغبتين على الأخرى. إن هذه اللحظة هي لحظة الانتخاب، فعبر الانتخاب الأمثل نتمكّن من إنتاج القيمة وإثبات قيمتنا أيضا. إذن لا بدّ أن تكون محاربة الرغبات السطحية عن طريق رغبة ذات قيمة.

ألم تؤدّ محاربة الرغبات إلى ظهور عقد نفسية؟!

أثناء جهاد النفس وعدم تلبية بعض الرغائب قد يتبادر هذا السؤال إلى الذهن، وهو ألم تؤدّ محاربة الرغبات إلى ظهور عقد نفسيّة؟ خاصّة وإن التوصية بجهاد النفس وإبعاد بعض الرغبات قد جاءت متعارضة مع بعض نظريات علماء النفس الذين هم يشيرون على الإنسان بممارسة كلّ ما يحبّ ويرغب فيه ليرتاح نفسيًّا. هكذا يوصّي بعض العلماء النفسانيّين المتغربين فيقول: «إن كنت قد فرحت بحدث ما، مثل ما إذا حصلت على إرث ضخم بعد وفاة أبيك وكنت مسرورا جدًّا بهذا الإرث، فلا داعي لحضورك في مجلس عزاء أبيك والتظاهر بالحزن واللوعة! بل بالعكس الأولى هو أن تظهر فرحك!» وهذا ما يسمّونه بالصدق في الثقافة الغربية ويعتبر عملاً قيمياً. ولذلك يصل بهم الأمر في سبيل تلبية رغبات النفس وعبر تأصيل الصدق أن يزول الحياء من المجمع. ولكن الواقع هو أنه لا يجوز ذبح جميع القيم من أجل صيانة الصدق. أو على سبيل المثال من يعيش في الغرب يقول: «بعد حياة طويلة مع زوجتي، أشعر بأني أرغب الآن في تكوين علاقة مع زوج مماثل في الجنس، وقد فاتحت زوجتي بذلك بكل صدق وصراحة، فطلقتها وأنا الآن أعيش حياة سعيدة بالزواج المثلي!» فإن هذا الإنسان يشعر براحة كاذبة عبر تلبية أهوائه النفسية، والتي هي لم تكن سطحية وحسب، بل تضيق الكثير من مواهبه. فلا بدّ أن نعلم بأن بعض الشعور بالحاجة إلى أمر ما هو شعور كاذب.

أسلوبان في مواجهة الاحتياجات الكاذبة: ١. أن تلبي احتياجاتك لكي ترتاح ٢. أن تعزز رغبة أخرى في مقابل هذه الرغبة لكي تخلص منها

في مجتمعنا الإسلامي إذا اعترت الإنسان رغبة من هذه الرغبات كالنزعة إلى الجنس المماثل - كمثال واضح جدًّا - يرجع الإنسان إلى نفسه مؤثِّباً ويقول: «ما هذا الشعور وما أقبحه؟! وكيف اعتراني هذا الشعور ولماذا؟ ثم إن الإدارة العامّة للمجتمع الإسلامي قد حظرت ذلك وجعلته في عداد الرغبات الممنوعة. فقد قال أمير المؤمنين (ع): «مَا نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَاعْتَنَى عَنْهُ» [غرر الحكم / ٣٧٨٦] فعندما يمنع هذا المدير العام هذا الفعل، فلا يحقّ لي أن أرغب فيه.»

فلا يختبئ هذا الهوس خلف عنوان الصدق كما يحصل اليوم في المجتمع الغربي، بل يجب أن يحارب هوى النفس هذا بسلاح الحياء. يقولون في الغرب: أرح نفسك ولا تجامل أحدا ويعبرون عن هذا السلوك بالصدق. فأحد عوامل شيوع بعض مظاهر الصدق في الغرب هو مثل هذه الأخلاقيات التي يوصي بها علماء النفس هناك. بينما عالم النفس الذي يريد أن يلتزم بالنظرية الإسلامية في معرفة الإنسان، يقول لمن رغب في المثليّة مثلاً: «إن حاجتك هذه حاجة كاذبة، فاقطع علاقتك مع هذه الرغبة وعزّز علاقتك مع الله، لكي يتضاءل هذا الشعور». هذان تفكّران وحضارتان أمامكم، فالأولى تشير عليك بتلبية رغباتك لكي ترتاح، أما الرؤية الثانية تقول: قوْ رغبة أخرى لكي تنجو من رغبتك السيئة هذه.

إن جهاد النفس لا يعقد الإنسان نفسياً

هل أن عدم تلبية رغبة من رغبات الإنسان يؤدي إلى ظهور بعض المشاكل من قبيل الابتلاء بعقد نفسيّة ويضّرّ بالإنسان؟ يقول علماء النفس في الغرب: لأنك قد تتأدّى فلا تجاهد نفسك فخذ راحتك وكن على رسلك، إذ قد يضرّ بك هذا الجهاد. ولكننا نقول إن جهاد النفس لا يلحق ضرراً بالإنسان، إذ عندما تحارب رغبة سيئة، فإنك في الواقع تحاربها برغبة حسنة، فإذا قويت هذه الرغبة الحسنة، يصبح جهاد النفس إرضاء للنفس من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال إنك تحبّ الله وتشعر باللذة والبهجة عند امتثال أمره، أو إنك تحب يوم القيامة ومغتبط بكونك محترماً ومثاباً في ذلك اليوم، فإنك عندما تترك إحدى رغباتك السطحية لصالح حبك لله ورغبتك في يوم القيامة، في الواقع قد لبّيت رغبة أقوى وأهم. لذلك تصفو روحك وينتابك شعور باطمئنان أعمق لكونك قد لبّيت رغبتك المثلى والأهم. إن الرغبة في التقرب إلى الله أصيلة وأعمق جذوراً، فإذا أقصيت رغبة سطحية لغرض تلبية هذه الرغبة لن تصاب بعقد نفسيّة، إذ قد لبّيت نزعاً ورغبة أعمق فلا تحزن لينجر حزنك هذا إلى عقد نفسيّة.

روي عن رسول الله (ص) أنه قال: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ أَعْطَاهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ» [مستدرک السائل/ ج ١٤ / ص ٢٦٨]. فمن غَضَّ بصره عن الحرام فهو في الواقع قد لبَّى رغبة أخرى من رغباته. إن الحبَّ الذي أعانك على غَضِّ النظر عن الحرام هل هو موجود أم لا؟! فإذا كانت هذه النزعة والرغبة موجودة فلا شكَّ في أنك قد استمتعت بتلبيتها. إن كنت قد عزّزت حبَّك لله ولأهل البيت (ع)، سوف تجاهد نفسك من منطلق هذا الحبِّ ولن تصاب بعقد نفسيّة، لأنك في نفس الوقت الذي تجاهد رغبة ما، تلبّي رغبة أخرى وهي أقوى وأعمق منها.

لابدّ أن نضيّق سعة تلبيتنا لرغباتنا القليلة القيمة بحسب ظرفنا

جهاد النفس يعني محاربة الرغبات السيئة والعديمة القيمة. ولكن لابدّ أن نعرف أن أسلوب محاربة هذه الرغبات ليس هو أن نتركها بتاتا. فإنه يجب عليكم أن تلّبوا بعض رغباتكم وإن كانت قليلة القيمة، ولكن لابدّ من تضييقها. لقد كان أولياء الله قد ضيّقوا رغباتهم القليلة القيمة إلى أقصى حد، بينما نحن فلا بدّ أن نضيّق سعة تلبيتنا لرغباتنا القليلة القيمة بحسب ظرفنا. أمّا وسيلة تضييق الرغبات القليلة القيمة وإزالة الرغبات السيئة، فهي الرغبات العميقة. يجب أن نعزّز رغباتنا العميقة وهذا أمر ممكن.

تعزير الحبِّ لله عمل صعب

تعزير الحبِّ لله ليس بعمل هيّن، إذ ما دام قلب الإنسان ينطوي على حبة من خردل من حبِّ الدنيا، لن يدخل فيه من حبِّ الله شيء. فقد روي عن أمير المؤمنين (ع): «كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ وَاللَّيْلَ لَا يَجْتَمِعَانِ كَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَحُبُّ الدُّنْيَا لَا يَجْتَمِعَانِ» [غرر الحكم / ٢٥١٣] إذن لابد من المحاولة لتعزير رغبات عميقة أخرى. فعلى سبيل المثال: ١- إن حبَّ الجنة ورضوان الله أهون على الإنسان من حبِّ الله. ٢- بمقدور الإنسان أن يعزّز خوفه من النار ويتقوى به على خفض حبِّ الدنيا. إن الخوف من نار جهنم يستبطن في داخله حبَّ العافية الأبدية، فإذا اشتدَّ هذا الحبِّ جدير به أن يكون حافزا لجهاد النفس. ٣- الطريق الآخر لإضعاف الرغبات السيئة هي أن نستخدم حبَّ الصحة والعافية في هذه الدنيا. فلنذكر أنفسنا بأن ارتكاب الذنوب تلحق بنا مشاكل وأضراراً في هذه الدنيا فضلا عن الآخرة، إذ أن كثيرا من مصائبنا الدنيوية قد حلّت بنا بسبب ذنوبنا.

المستويات المختلفة في الرغبات الجيّدة

كما عرفنا أن السلاح الوحيد لمحاربة الرغبات السيئة هو الرغبات الجيّدة. وإن قَمّة الرغبات الجيّدة هي حبّ الله. أما حبّ الجنة فيقع في وسط الرغبات الجيّدة والخوف من نار جهنّم يقع في مرتبة نازلة من حبّ الجنّة وهو أسهل حصولا لدى الإنسان. ثم يأتي بعد ذلك الخوف من المصائب الدنيوية. فكلّ هذه المشاعر والنزعات كامنة في قلب الإنسان. كما يقع الخوف من ضغطة القبر ونزع الروح وسكرات الموت بين الخوف من مصائب الدنيا وغذاب الآخرة، فلا بدّ من صرف الوقت على هذه المشاعر ودراسة الروايات ذات الصلة بها. ولا بدّ من بذل قصارى الجهود في سبيل تعزيز هذه المشاعر وتمارين النفس عليها والتفكّر فيها والمطالعة حولها وتعزيزها. وقد سهّل الله في شهر رمضان عمليّة تعزيز الرغبات الجيّدة. إن شهر رمضان لفرصة رائعة لتعزيز الأهواء الصالحة. كلّ ذنب تتركه وكل جرعة غيظ تتجرعها وكلّ أمر إلهي تمتثله من شأنه أن يعزّز رغباتك الصالحة، كما بإمكانك أن تبادر بتعزيز هذه الرغبات بشكل مباشر. فمن يلبي أهواءه الحميدة تصفو نفسه وتزداد حيويّة ونشاطا، كما تجلو نفسه الراضية والمطمئنة أيضا.

من بين المشاعر الصالحة، الشعور الذي يدفع الإنسان إلى الأمام أسرع، هو حبّ أهل البيت (ع)

إن حبّ أهل البيت (ع) يقضي على الأهواء القليلة القيّمة. إذا لبّى الإنسان هوى نفسه، يخرج عن اعتداله ويسلب الحكمة ويعجز عن الفهم والمعرفة. بينما إذا عزّز الإنسان نزعاته الصالحة يتعادل روحه. يقول أمير المؤمنين (ع): «ذَكَرْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ شِفَاءً مِنَ الْوَعْلِ وَالْأَسْقَامِ وَ وَسَوَاسِ الرِّيْبِ وَ حُبُّنَا رِضَا الرَّبِّ» [تحف العقول/ ١١٤]

قال رسول الله (ص): «مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ حُبَّ الْأُمَّةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَقَدْ أَصَابَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَا يَشْكَنَّ أَحَدٌ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ فَإِنَّ فِي حُبِّ أَهْلِ بَيْتِي عَشْرُونَ [عَشْرِينَ] خَصْلَةً عَشْرٌ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا وَعَشْرٌ مِنْهَا فِي الْآخِرَةِ أَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا فَالزُّهْدُ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعَمَلِ وَالْوَرَعُ فِي الدِّينِ وَالرَّغْبَةُ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّوْبَةُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَالنَّشَاطُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ وَالْيَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَالْحِفْظُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيُهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّاسِعَةُ بُغْضُ الدُّنْيَا وَالْعَاشِرَةُ السَّخَاءُ وَ أَمَّا الَّتِي فِي الْآخِرَةِ فَلَا يُنْشَرُ لَهُ دِيْوَانٌ وَ لَا يُنْصَبُ لَهُ مِيزَانٌ وَ يُعْطَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَ يُكْتَبُ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَ يَبْيَضُ وَجْهُهُ وَ يُكْسَى مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ وَ يَشْفَعُ فِي مِائَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَ يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ وَ يَتَوَجَّحُ مِنْ تَيْجَانِ الْجَنَّةِ وَ الْعَاشِرَةُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ فَطُوبَى لِمُحِبِّي أَهْلِ بَيْتِي» [الخصال/ج ٢/ص ٥١٥] كلِّماتمَّ جهاد النفس بشكل أفضل، كلِّماتمَّ ازداد الإنسان حبًّا لأهل البيت (ع)، وكلِّماتمَّ ازدادت حبًّا لأهل البيت (ع) تزداد قوَّة على جهاد النفس. فأرجو أن لا نكون من الخجلين يوم القيامة أمام الحسين (ع) إذ يقول الله لنا، أما كان الحسين (ع) أهلاً لأن تعشقه وتحبه أكثر مما كنت تحبه؟! فلماذا لم تسمح له بأن يحتل قلبك برمته؟!...

صلى الله عليك يا أبا عبد الله